فلسفة التربية الحديثة

التربية لاتعرف.. التسلط

هذه الرسالة للعلامة جون ديوى John Dewey عربتها المربية الكبيرة إحسان أحمد القوصى- رحمها الله- إحدى رائدات التربية فى مصر. وقد صدرت الكتاب بإهداء الرسالة إلى أستاذها بولس خولى بقولها:

كنت أول مورد عذب ارتشفت منه ما أطفأ شيئا من شديد ظمئى لعلوم التربية، وكنت أمامى خير قدوة للمعلم الكفء والمربى الصالح، بل كنت المثال الحى للفضيلة وكرم الأخلاق... أريتنى كيف يكون الاحترام عن إجلال لا عن رهبة، وكيف يكون الدرس عن لذة ورغبة، فإذا أنا قدمت إليك هذه الرسالة فما ذلك إلا تقدير لفضلك واعتراف بجميلك.

وأنا بدورى أهدى هذه الصفحات عن الرسالة التى عربتها وفاء واصطفاء،فقد كانت لى أستاذا وكانت لى أما.

تناولت هذه الرسالة:

التربية كضرورة من ضروريات الحياة. والتربية كوظيفة اجتماعية، وإرشاد، ونماء.

كما تضمنت: أنواع التربية والفكرة الديمقراطية فى التربية، الغايات فى التربية، النمو الطبيعى والكفاية الاجتماعية كغايات، الاختيار والتفكير، طبيعة أسلوب التعليم العمل واللعب فى منهج التعليم، قيمة الجغرافيا والتاريخ، العلم فى مضمار الدراسة، القيم التهذيبية، العمل والفراغ، الدراسات العقلية والعملية والطبيعية والاجتماعية، الفرد والعالم، الأوجه الصناعية فى التربية، فلسفة التربية، نظريات المعرفة، نظريات الأخلاق. ومن أهم ماجاء فى هذه الرسالة أن التربية ليست بالتسلط والقهر وأن أفضل الطرق وأبقاها أثرا تلك التى يشترك فيها الصغير، فيكسب المعنى الاجتماعى لاشتراكه. إن التربية غاية فى ذاتها. ومقياس قيمة التربية المدرسية هو درجة ماتخلقه من الرغبة فى استمرار النمو وماتعده من الوسائل لجعل هذه الرغبة فعالة حقيقة. لابد من الديمقراطية فى التربية. فالأمران الجديران بأن تقاس بهما قيمة أية حياة اجتماعية هما مبلغ اشتراك الأفراد فى المصالح العامة، والحرية التامة التى يتعاملون بها مع الجماعات الأخرى. إن

الجماعة التى تجعل اشتراك جميع أفرادها فى المصالح العامة على قدم المساواة والتى تجيز فى نظمها التكيف والتغيير الذى ينتج عن تفاعل الهيئات المختلفة فى الحياة المرتبطة هى الجماعة الديمقراطية. وهذا المبدأ نفسه يطبق فيما يتعلق بعلاقات الأمم بعضها مع بعض، فلا يكفى أن نعلم فظائع الحرب وأن تتلقى كل ماينبه المنافسة الدولية وإنما يجب أن ندعم كل ما يربط الجماعات ويجلب التعاون البشرى بقطع النظر عن الفوارق الجغرافية، والشرط الثانى فى الحكومة الأهلية أن تساعد على الاختلاط التام الحر المثمر بين أفراد البشر كما تطلق قوى الفرد ليعمل للغايات العمومية وتقدمها.

أقول ومن هنا تعتبر المشاركة فى صنع القرار أقوى دعائم الديمقراطية وأولى أساسياتها. وعن قيمة الجغرافيا والتاريخ تقول الرسالة: إن الجغرافيا والتاريخ قيمتهما التهذيبية أنهما يعدان أقرب الطرق وأفيدها لعالم أوسع من المعانى الواردة فيهما. والتاريخ يجعل أمور الإنسان واضحة، والجغرافيا كذلك توضح العلاقات الطبيعية. ولاشك فإن هذين الموضوعين هما وجهان لنفس المجموع الحى لأن حياة البشر فى مجتمعهم سائرة فى الطبيعة لا كشئ عارض وإنما كمادة وواسطة النماء .

أقول: إن التاريخ داخلنا لأنه نسيج شخصيتنا ونحن حين ندرسه إنما نتعرف إلى شخصياته داخلنا أو نتعرف إلى أنفسنا ذاتها.. ومن هنا يجب أن يكون تدريس التاريخ (فنا) ويكون تلقيه رحله فى الحياة ماضيها، وإنجازاتها.. لا نقف عند مآسيه وحدها التى هى فشل الإنسان ولكن عند أفراحه أيضا فهى حصاد السنين.

كان فرويد يرى فى الحلم دلالة على الماضى، حين كان يونج يرى فى الحلم دلالة على المستقبل. ورؤية المعنى فى التاريخ دلالة على المستقبل ونوعيته من خلال الماضى.

إن وعى التاريخ ليس اجترار الماضى إنها معاصرة واستجماع لانطلاق.

أليست معاصرة معمقة أن يعى الإنسان التاريخ ؟

ومن الطريف أن المؤلف يعرّف فلسفة اليونان بقوله إن الذى حمل اليونان على الفلسفة هو فشل عاداتهم التقليدية ومعتقداتهم فى ضبط أعمال الحياة فقادهم ذلك إلى انتقاد العادات ومعاكستها والبحث عن مورد سلطة أخرى فى الحياة والاعتقاد.

ولما رغبوا فى إيجاد مقياس عقلى للحياة والاعتقاد وكانوا قد اعتبروا الاختبار كالعادات التى ثبت لهم نقصها انقادوا لمضادة صريحة بين العقل والاختبار، وهكذا كلما عظم الأول انحط الثانى- ولما كان الاختبار يماثل ما يعلمه الناس ويقاسونه على الأخص من تغيير أحوال الحياة المختلفة انحطت قيمة العمل بفضل فلسفتهم كما هبطت فلسفتهم نفسها.

أقول تطبيقا لهذا إن اليونانيين اعتبروا اليدويين عبيداً والمفكرين، وطبعا السياسيين، سادة حين سمى الفرنسيون اليد(اليد المفكرة) لأن الحضارة بدأت حين وقف الإنسان على قدميه وعمل بيديه.

وعن نظريات الأخلاق تقول الرسالة أهم ما فى مسألة التربية الخلقية فى المدارس هو: العلاقة بين المعرفة والسلوك لأنه إذا لم يكن التعليم فى المدة الدراسية النظامية يؤثر فى الأخلاق فمن العبث أن نحسب أن الغاية الأدبية المتحصلة غاية التربية الرئيسية الموحدة. فما الرغبة فى التعليم والاستفادة من كل ما يتصل بالحياة إلا النزعة الأدبية الحقة.